إنجيل يوحنا: رحلة الإيمان

« أنا الكرمة »

(١٥: ١-١٦: ٤)

تأليف: بروس مكلارتي

توحد بمكتبي لوحة للرسام نورمان روكويل في مكتبي. وتظهر تلك اللوحة قصة اختبرناها جميعنا بطريقة ما أو بأُخرى. أي قصة « الابتعاد عن البيت ». يظهر في الصورة أباً جالساً بجانب ابنه على حافة عربة شاحنة صغيرة وقديمة تملكها الأسرة، يبدو وكأنهما ينتظران شيء ما، ربما ينتظران الحافلة لكي تنقل الابن إلى الجامعة التي قد تكون بمكان آخر. يبدو الأب مرتدياً ملابس العمل، والابن لابساً بذلة وربطة عنق، يبدو الأب متقدماً في السن، مرهقاً وقلقاً. ويبدو الابن شاباً مليئاً بالقوة والحيوية، ومستعداً للانطلاق في العالم. هناك شيء من الحزن في هذه الصورة. يتحنن الشخص للأب ولكلب الأسرة، الذي كان يشعر بان ذلك وداعاً، إذ نراه وقد اركى رأسه بطريقة حزينة على رجل الشاب. عندما أنظر إلى هذه الصورة أحياناً، أشبه نفسي بذلك الشاب. اما في هذه الأيام فاشبه بالآب. وأحياناً أخرى بالكلب!

بدات لوحة روكويل وكانها تطرح سؤلاًواحداً: « ما الذي كان يفكر به الأب؟ » أتخيل بانه عندما تأتي الحافلة، يقف الاثنان ويقول الأب: « انتبه على نفسك الآن، أتسمعني؟ » أو ربما يقول: « أرجو ان تراسل أمك يا ابني، انها ستفرح بذلك ». ولكن لا يهمني كلامه أكثر من احساسه الذي بقى مخفياً في أعماق قلبه. أتخيل بانه كان يفكر بما كان ينتظر ابنه. هل هو مستعد؟ هل سيكون له اصدقاء صالحين؟ هل سيعرف كيف يتعامل مع الحزن؟ هل سيغيره النجاح؟ هل علّمه الأب كل ما سيحتاج إليه هناك في العالم؟

مشهد الأب والابن في لوحة روكويل يعدنا جيداً لندرس هذا الدرس. يتحدث الأصحاح ١٣ إلى ١٧ من إنجيل يوحنا عن يسوع والساعات الأخيرة قبل الصلب. لقد غسل أرجل التلاميذ في الأصحاح ١٣، وفي الأصحاح ١٤ هدأ خوفهم. وفي هذا النص (١٥: ١- ١٦: ٤) سنرى كيف أعد التلاميذ للمشاكل التي ستواجههم. وقد فعل هذا بذكر ثلاثة مسائل رئيسية كانوا سيواجهونها اثناء غيابه.

المسألة الأولى: اضطهاد (١٥: ١٨-١٦: ٤)

هل أبغضك أحد على الاطلاق دون ان تدري لماذا؟ مرت إحدى أخواتي بمثل هذا عندما كانت بالجامعة. لاحظت طالباً كان ينظر إليها وكأنه يبغضها. ولكنها لم تكن تعرف ذلك الطالب. كانا يتقابلان أحياناً في الطريق فتبتسم أختي وتحيه بلطف. ولكنه يتجهم وينظر إلى الاتجاه الآخر ويتنهد باشمئزاز. فأخبرت صديقاتها بهذه الحالة الغريبة ولكنهن ظنن بان ذلك كان مجرد خيال منها.

وفي أحد الأيام دعت أسرة ما أختي للعشاء، وقد دعت تلك الأسرة أيضاً شاباً آخر دون ان تعرف أختي من هو ذلك. فقبلت الدعوة. جاء الموعد، فتسائلت اختي عمن يكون ذلك الشاب الذي ستلتقيه! وعندما وصلت إلى هناك صارت الأمسية كارثة. لم يبدو بانه يبغضها فحسب بل أبغضها فعلاً. لم يقل شيئاً بلطف أو بلياقة،

ولم يحاول أبداً ان يستمتع بالموعد. فتحيرت أختي بسبب كل هذا. فهي لم تفعل شيئاً لتسيء لهذا الشخص، ومع ذلك تعامل معها كأنها أسوأ عدو له. وفي وقت لاحق عرفت بان المصيبة هي لأنها تشبه فتاة أخرى أراد هذا الشاب ان يخطبها ولكنها سحقت قلبه قبل ان يترك مدينته بوقت قصير ليلتحق بالجامعة!

لقد حذر يسوع تلاميذه في النص قائلاً بانهم سيواجهون أوقاتاً صعبة. سيتحيرون بعد وقت قصير كما تحيرت أختي! لقد أعدهم يسوع لهذه الخبرة المؤلمة بعدة طرق. أولاً: قال لهم انه إذا أبغضهم العالم فليتذكروا أن العالم أبغضه قبلهم (١٥: ١٨). ولأنهم كانوا تلاميذه يمكن ان يتوقعوا المعاملة نفسها التي تلقاها (١٥: ٢٠). لو كان العالم قد استمع له فيستمع اليهم أيضاً. ولكن ما دام العالم قد اضطهده فيجب ان يتوقعون ان العالم سيفعل بهم هكذا أيضاً.

قال لهم يسوع بان اضطهاد العالم لهم لا يكون «شخصياً» بل يضطهدونهم لأنهم اتباعه (١٥: ٢١). أراد يسوع لتلاميذه ان يعرفوا بان الذين أبغضوه والتلاميذ يبغضون الله أيضاً (١٥: ٢٣). لقد علم يسوع بان الشيء الأكثر أسى في الاضطهاد الآتي هو انه سيكون «بلا سبب!» (١٥: ٢٥). تمنى يسوع بان معرفة التلاميذ لهذه الأمور قبل حدوثها ستجعلها أكثر احتمالاً لهم.

كان على التلاميذ ان يتوقعوا أيضاً بانهم سيُخرجون من المجامع.[1] من بين كل الأشياء التي أنذرهم يسوع عنها قد تكون هذه العبارة هي الأكثر ألماً: «تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله» (١٦: ٢). لماذا أخبرهم يسوع بمثل هذا الخبر المؤلم في عشية صلبه؟ كان هدفه هو ان يعدهم لكي لا يعثروا إذا حلت الأوقات العسيرة (١٦: ١). إذا عرفوا بان يسوع قد أنذرهم عن مثل هذه المصاعب لا يثبط عزمهم (١٦: ٤). لم يحتاجوا إلى مثل هذه الإنذارات عندما كان يسوع معهم يشجعهم ويرشدهم. ولكن عندما بدأ يسوع يستعد ليتركهم كانت هذه الأشياء ضرورية جداً لبقاءهم الروحي.

مع ان حالتنا نحن أتباع يسوع تختلف قليلاً اليوم، إلا اننا نحتاج أيضاً إلى الاستماع إلى كلامه عن الاضطراب الذي سنواجهه. في بعض الأماكن في العالم اليوم توجد معارضة شرسة تواجه المسيحيين. يضربونهم ويلقونهم في السجون، تحرق بيوتهم، أو يمنعونهم من ان يجتمعوا ككنيسة {يمنعونهم من وظائف معينة ويسلبون عنهم حريتهم}. هؤلاء المسيحيون يفهمون كلام يسوع في هذا النص. يعرفون انه لا يجب ان يذهلوا بسبب آلامهم، لأن يسوع نفسه تألم أولاً!

قد لا يواجه بعض المسيحيون اضطهاداً جسدياً بقدر ما يواجهون الاضطهاد الاجتماعي. بينما قدلا يضربونهم بالمعنى الحرفي يستهزئون بهم بسبب معتقداتهم ويسخرون منهم بسبب إيمانهم. في سنة ١٩٩٢ أصدر الناقد السينمائي مايكل مدفيد كتاب بعنوان «هوليوود في مواجهة أمريكا». وقد أظهر فيه كيف ان شركة الافلام تنتهز كل فرصة لتستخف بالمسيحية والقيم الدينية. وفيما بعد أصدر شريط فيديو بعنوان «هوليوود في مواجهة الدين». لقد قال في كل من الكتاب والفيديو بانه رغم التكليف الهائل للأموال إلا انه يبدو ان منتجو أفلام هوليوود يهدفون إلى مهاجمة الذين يؤمنون بالله.

يأتي اشدالاضطهاد أحياناً من أسرة الشخص المسيحي نفسه. قد ينتقد الزوج زوجته ويستخف بإيمانها أو تنتقد الزوجة زوجها وتستخف بإيمانه. قد يكون هذا النوع من الاضطهاد الذي يأتي من الأسرة والعائلة هو الأصعب تحملا. بكل تأكيد كان هذا هو السبب في انه برغم من توصية المسيحيين في القرن الأول ان لا يتركوا زوجاتهم غير المؤمنات أو أزواجهن غير المؤمنين، إلا ان الفكرة بان

[1] أنظر يوحنا ٩: ٢٢ ، ٣٤ ، ٣٥. كان الاخراج عن المجمع شيء أكبر من مجرد الطرد المؤقت من بيت العبادة. كان المجمع هو المركز الاجتماعي والديني للمجتمع. الانعزال عن الأسرة والمعشر سيكون ثمناً غالياً لاتباع يسوع.

يتزوج المسيحيين والمسيحيات من غير المؤمنين أو من غير المؤمنات شيء لا يمكن التفكير به (١ كور ٧: ١٢-١٦ و٣٩).

كتب بولس (ولم يكن الاضطهاد شيئاً غريباً عنه) إلى الكنيسة التي في روما قائلاً: «إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس» (رومية ١٢: ١٨). تشير الكلمات الخمس الأولى من هذه الآية إلى انه ليس في نطاق سيطرتنا دائماً ان نعيش في سلام. أحياناً لا يسمح خصومنا الروحيون ان يتركوننا وشأننا، وعلينا ان نواجه الاضطهاد. لا يجب ان نذهل بسبب هذا ان نعرف آلام يسوع وانذاره باننا أيضاً سنتألم لأننا نتبعه. فكلامه يحمينا ويحفظنا من التعثر!

المسألة الثانية: انعزال عن يسوع (١٥: ١-٨)

من الواضح اننا قد بدأنا هذا النص بطريقة غير عادية، حيث اننا قد بدأنا من النهاية. وقد فعلنا هذا لكي نرى المشكلة التي كان يتم الحديث عنها حتى ندرك ضرورة العلاقة التي تحدث يسوع عنها سابقاً. وإلا فقد نميل إلى رؤية هذا القسم كدرس روحي رائع ليست فيه مشكلة الاضطهاد. نتيجة لذلك بدأنا بنهاية هذا الأصحاح والآن مستعدين للبداية.

قال يسوع لتلاميذه: «أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام» (١٥: ١). هذه آخر عبارات «أنا هو» كما ورد في إنجيل يوحنا تمثل الكرمة والأغصان مجاز للعلاقة التي تكون بين الابن والآب وتلاميذ الابن. يسوع هو الكرمة والآب هو الكرّام أي صاحب الكرمة والتلاميذ هم الاغصان. والثمر الذي تنتجه الأغصان هو التقوى في حياة التلاميذ.

في هذا المجاز تركز رسالة يسوع على أهمية البقاء على صلة حميمة معه كالغصن في الكرمة التي ينمو فيها. والاخفاق في هذا يجلب موتاً سريعاً. البقاء في الكرمة هي الطريقة الوحيدة لإنتاج الثمر، والإخفاق في إنتاج الثمر يجلب الموت. أشار يسوع إلى ان الأغصان غير المثمرة ستؤخذ خارجاً ويحرقها الكرّام (١٥: ٦). قال أيضاً بان الكرام يأخذ الأغصان المثمرة ويقنبها لتنتج مزيداً من الثمر (١٥: ٢). يشير الحديث عن التقنيب في الآيات الأولى من هذا الأصحاح إلى ان إتباع يسوع سيكون مؤلماً بالنسبة للتلاميذ في المستقبل.

لقد شدد يسوع على انه من الضروري للتلاميذ ان «يثبتوا» فيه. نطق يسوع بمشتقات الكلمة «ثبت» سبع مرات في سبع آيات (١٥: ١-٧). وهذا يعني «الاستمرار» أو «البقاء». كما ان الغصن يجد غذاءه من الكرمة هكذا أيضاً يجد التلاميذ الدعم للحياة من يسوع. عدم معرفة هذا في مثل هذا الوقت الحاسم هو كارثة. إذا انعزلوا عن الكرمة، يموتون ويحرقهم صاحب الكرمة.

كان التلاميذ سيواجهون الألم في الساعات الأربع والعشرون التالية، وكانت لهم عدة خيارات. نحن أيضاً سنواجة معارضة وأسى روحي إن لم يكن جسدي عندما نتبع يسوع. ويكون لنا أيضاً خيارات.

عندما نُبغض لأجل يسوع، قد نكف عن اتباعه.

عندما نُبغض لأجل يسوع، قد نشعر بانه قد تم خيانتنا.

عندما نُبغض لأجل يسوع، قد نغير هويتنا.

عندما نُبغض لأجل يسوع، قد نبقى ثابتين في الكرمة!

المسألة الثالثة: ضرورة المحبة (١٥: ٩-١٧)

بالإضافة إلى «الثبات» في الكرمة قيل للتلاميذ أيضاً أن «يثبتوا» في المحبة. المحبة هي الوصية العظمى لأتباع يسوع! كان يسوع قد أظهر في وقت سابق من خلال غسل أرجل التلاميذ أهمية المحبة في تعاليمه. لقد قال في تلك المناسبة:

> وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض (١٣: ٣٤ و٣٥).

أشار يسوع إلى الوصية: «أن تحبوا بعضكم

بعضاً كما أحببتكم» بانها «وصيتي» (١٥: ١٢). محبة الله ومحبة البعض هي في مركز رسالة الإنجيل (متى ٢٢: ٣٤-٤٠). والمحبة هي أيضاً ما وضع عليها التشديد في هذا القسم من إنجيل يوحنا. لقد لاحظ دوت بان كلمة «محبة» تظهر ست مرات فقط في الاصحاحات الاثني عشر الأولى، بينما تظهر واحد وثلاثون مرة في الاصحاحات من ١٣ إلى ١٧!

المحبة في هذا النص ليست شعور عاطفي. أوضح يسوع بانه كان يشير إلى نوع المحبة التي تظهر بطريقة أفضل في موته على الصليب. ربما لم يفهم التلاميذ قصده عندما قال لهم: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (١٥: ١٣)، نحن (أنت وأنا) نرى بوضوح انه كان يتكلم عن موته الذي كان سيحدث في اليوم التالي. يتم دعوة تلاميذه الآن كما كانوا قد دعيوا حينذاك، أي ليقتدوا بمحبته، المحبة نفسها التي قادت يسوع إلى الصليب.

الخلاصة

لقد أنذرنا يسوع بانه يجب على الذين يتبعونه ان يتوقعوا الاضطهاد. يواجه جميع المسيحيين الضيق بطريقة ما أو بأخرى بسبب إيمانهم. عندما يحدث ذلك ماذا يجب ان نفعل كمسيحيين؟ الأجوبة التي يعطينا إياها يسوع هي «أبقى في الكرمة» و«أحبوا بعضكم بعضاً».

في اليوم التالي من اعطاء هذه الوصية مضى يسوع إلى الصليب وكانت تلك أعظم طريقة لإظهار المحبة التي لم يعرفها العالم أبداً. ولكنهم لم يحبونه بالمقابل. بل عوضاً عن ذلك شتموه وبصقوا عليه وضربوه وأذلوه وبالتالي قتلوه. كان ذلك مشهد مزعج لبغض غير منطقي شاهده العالم على الاطلاق. حتى في هذه الحالة الجنونية أظهر يسوع الإخلاص والمحبة. لقد واجه اضطهاداً وأرانا الطريقة للتغلب عليه.

في تعبير نستخدمه عندما يمر علينا يوماً سيئاً نقول: «كانت أمي تقول دائما بانه ستكون هناك أياماً مثل هذه». عندما يتم دعوتنا لدفع ثمناً باهظاً بسبب اسم يسوع الذي نحمله، يمكن ان نقول بالطريقة نفسها: «قال الرب بانه ستكون هناك أيام مثل هذا». لم يقل بان المآسي ستأتي فحسب، بل قال لنا أيضاً ما نفعل عندما تأتي: اثبتوا في الكرمة وأحبوا بعضكم بعضاً!

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧